'ULŪM ISLĀMIYYAH THE MALAYSIAN JOURNAL OF ISLAMIC SCIENCES
VOL.33 NO.1 (APRIL) 2021 ISSN:1675-5936 | eISSN:2289-4799

قضية النظم من منظور علم البلاغة؛ دراسة تحليلية بلاغية

[Versification Issue from the View of Rhetoric Discipline: Rhetorical Analysis Studies]

Mohamed Haji Ibrahim [1]*, Yuslina Mohamed [1], Majdi Hj Ibrahim [2], Wan Azura Wan Ahmad[1], Aishah Isahak [1]

[1] Faculty of Major Language Studies, Universiti Sains Islam Malaysia, Bandar Baru Nilai, 71800 Nilai, Negeri Sembilan, Malaysia.

[2] Department of Arabic Language and Literature, Kulliyyah of Islamic Revealed Knowledge and Human Sciences, International Islamic University Malaysia (IIUM), Jalan Sg. Pusu, Gombak, 50728 Kuala Lumpur, Malaysia.

* Corresponding Author: mohamed@usim.edu.my

ملخص

لعل من أهم القضايا التي يجب على دارس البلاغة أن يحيط بها علماً ومعرفة هي قضية النظم. فهي في حد ذاتها تعتبر القضية الأولى التي أثارها مؤسس علم البلاغة الإمام عبد القاهر الجرجاني أثناء بحثه ودفاعه عن قضية الإعجاز البياني في القرآن الكريم. وعلى هذا الصدد، جاءت هذه المقالة لدراسة فكرة النظم والبحث في ثناياها، وكشف معالمها تحت منظور علم البلاغة. كما تهدف هذه المقالة أيضاً إلى أن تكون مرجعا بارزا، وحديثا موجزا عن فكرة النظم، ونظريته منذ نشأتها إلى أن ثبتت فكرة راسخة في علم البلاغة. إن الذوق الأدبي، والحس المرهف الذي يمتلك كشف أسرار البلاغة يكمن في الإحاطة بالأسلوب

Manuscript Received Date: 01/10/20 Manuscript Acceptance Date: 30/02/21 Manuscript Published Date: 24/04/21

©The Author(s) (2020). Published by USIM Press on behalf of the Universiti Sains Islam Malaysia. This is an Open Access article distributed under the terms of the Creative Commons Attribution Non-Commercial License (http://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/), which permits non-commercial re-use, distribution, and reproduction in any medium, provided the original work is properly cited. For commercial re-use, please contact usimpress@usim.edu.my

doi: 10.33102/uij.vol33.no1.09

ونظم الكلام، والعلم بتخير الألفاظ. فوضوح الدلالة أو غموضها لا يتأتّى إلّا من خلال التعرف على ماهية فكرة النظم. وهذا كله هو ما تهدفه هذه الدراسة المتواضعة التي نحن بصددها. ويعتمد الباحثون في هذه المقالة على المنهج الاستقرائي والتحليلي، وذلك باستقراء شواهد من الآيات القرآنية والأبيات الشعرية وتحليلها تحليلا بلاغيا وفقاً لمفهوم النظم الذي انتهجه عبدالقاهر الجرجاني لتبيان تفاوت مستويات البلاغة والفصاحة في الكلام. وقد خلصت الدراسة إلى أن سبب ظهور نظرية النظم هي تعالق وارتباط اللفظة بأخواتها في سياق ما، يقتضيه علم النحو بصحته وأن الفصاحة والبلاغة لا تتأتى إلا من ذلك النظم. واستنتج الباحثون أن النظم هو الحكم الوحيد في منظور البلاغة لأن الزخرفة في الشعر عند التعبير لا تعنى أن نظم الكلام استحق الفصاحة أو البلاغة بخلاف نظم القرآن الكريم الذي ابتعد عن الزخرفة.

الكلمات المفتاحية: فكرة النظم، البلاغة، النحو، القرآن الكريم.

Abstract

This study deals with one of the important subjects in the Rhetoric Discipline, i.e., versification issue. It is considered the first issue been raised by Imam Abd al-Qaher al-Jarjani, the founder of rhetoric, during his research and his argument on the issue of miracles in the Holy Quran. This study discusses the versification thought and reveals its features under the rhetoric perspective. The objective of this study is to be a prominent reference and to discuss the versification thought, and his theory of versification from its inception until it established in this discipline. The Arabic literary taste and sense possess the disclosure of the secrets of rhetoric, it relies on the awareness of style and the verbalization theory. The clarity of the significance or its ambiguity can only come through versification thought. In this study, the researchers rely on the inductive and analytical method, by extrapolating evidence from the Qur'anic verses related to the versification thought based on Abdul-Qahir al-Jurjani analysis' theory. The study concluded that the reason for the emergence of versification theory is the interrelation of the word and the context of what is required by grammar with its validity and that eloquence and rhetoric does not come except from that versification. Finally, the researchers concluded that the versifications are the only verdict in terms of rhetoric because the decoration in poetry when expressing does not mean that the versification of speech deserved eloquence or rhetoric compared to the Qur'an, the great miracle far from decoration.

Keywords: *versification thought, rhetoric, grammar, the Noble Qur'an.*

1. مقدمة

كما عرفنا أن الذي قد بهر العرب وسلب نفوسهم، أسلوب القرآن ومعناه. فقد كان أسلوب نظمه خارجاً عن المعهود من نظام كلامهم، ومبايناً للمألوف من ترتيب خطابهم. فأساليب القرآن الخطابية هي نفس الأساليب المألوفة لدى العرب، بيْد أنَّ تنظيم الكلمات في تلك الأساليب كان في أعلى مستويات نظم الكلام. فلَمْ تستطع الكلمة أن تخرج من مكانها لِيحلَّ مكانها مرادف من مترادفاتها. كما أنَّها لَمْ تستطع أن تتقدَّم أو تتأخَّر عن أختها، بل كان مكانها هو الصحيح، ذلك لأنّها أخذت كلَّ حقوقها من حيث المعنى اللغوي، والمعنى الثانوي. فكانت الكلمة تؤدّي واجبها على أكمل وجه.

إنَّ القرآن الكريم كان السبب الوحيد في توليد فكرة النظم. فالألفاظ التي جاءت في آيات هذا الكتاب المبين ألفاظ عربية مستخدمة متداولة. ومع ذلك، وقفت العرب صامتة أمام المعجزة البيانية التي أتى بها القرآن. وأقرُّوا بأنها البلاغة بكل ما تحملها الكلمة من معنى. ففي القرون الهجرية الأولى اشتعلت نار الجدل بين أئمة الأدب وأرباب المقالات من علماء الكلام في معرفة وتبيان حقيقة وجه الإعجاز الذي جاء به القرآن، والذي تحدّى العالمين بأن يأتوا بحديث مثله. فاختلفوا في هذا طرائق قِدادا، وكَثُرَتْ آراؤهم عددا، فتعدَّدتْ نزعاتهم، وتضاربت مذاهبهم. فكانت هذه الحقبة إيذاناً لبداية نشأة فكرة النظم.

وقد كان المعتزلة من أبرز الطوائف المتكلِّمة الذين أخذوا يدافعون عن الإسلام، وثبتوا في مواجهة المعارضين من الطوائف الأخرى كالمرجئة والجبرية والملاحدة. فأخذت بهم العناية أنْ يبحثوا عن حسن الخطابة والمناظرة والجدل. فكثر الحديث في قوة الحجة، ووضوح العبارة، وجهارة الصوت. مما جعلهم يطلبون ألواناً من الثقافة الأجنبية وخاصة من الفلسفة وما يتَّصِل بها من المنطق، ليتمكّنوا من نيْل مقاصدهم، وإثبات الحجة والبرهان في كلِّ ما ذهبت إليها مذاهبهم. فتقدّموا في مباحث البلاغة من الوجهة النظرية والتعليمية. فكان أقدم تعريف للبلاغة ما جاء عند عمرو بن عبيد المعتزلي (ت 144هـ) بأنها "تخيُّر اللفظ في حُسْنِ الإفهام" (Dhaif,1965). فكانوا يطلبون معرفة ما عند الأمم الأجنبية من آراء في البلاغة وماهيتها. ونجد الجاحظ يسوق تعريف البلاغة عند طائفة من تلك الأمم ، فيقول: "قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الوصل من الفصل. وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام واختيار الكلام. وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة. وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة" (Aljahiz,1948).

وعلى ضرار هذه المقدمة الموجزة تولَّدتْ هذه المقالة العلمية لتكون مرجعاً بارزاً، وحديثاً موجزاً عن فكرة النظم، وقضيَّته، تحت منظور علم البلاغة. فهذه المقالة تعنى بربط قضية النظم بعلم البلاغة. والمؤلف يرى أنَّ الوصول إلى البلاغة الحقيقية يكون بمعرفة أصول قضية النظم، ونقده. فالمقولات التي اقتبسناها من الجاحظ،

والتي اسردناها في السطور السابقة في مقدمتنا هذه، تشير إلى ماهيَّة البلاغة، لكنها لَمْ تعطِ تصريحاً واحداً بأنَّ النظم هو سرُّ البلاغة الحقيقي، وأنّه هو المقصود من اختيار الكلام، وحسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة، ووضوح الدلالة، وحسن الإشارة. وعلى هذا الصعيد، جاءت هذه المقالة لتناقش قضية النظم تحت منظور علم البلاغة. والله ولي التوفيق.

2. تعريف النَّظْم

إنْ رجعنا إلى المعاجم العربية لكشف معنى **النَّظم لغةً** لوجدناها تتحدث عن أن معنى النظم يدور حول مقصود الترتيب، والتنسيق في تسلسل. ففي الجزء الخامس من الصحاح للجوهري: "نظمت اللؤلؤ: أي جمعته في السلك، والتنظيم مثله، ومنه نظمت الشعر، ونظمته. والنظام: الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ، ونظم من لؤلؤ، وهو في الأصل مصدر. والانتظام: الاتساق" (Aljawhari,1979).

وفي الجزء السادس عشر من معجم لسان العرب لإبن منظور: "النظم، التأليف، ونظمه نظماً ونظاماً. ونظمه فانتظم وتنظم ونظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك، والتنظيم مثله، ومنه نظمت الشعر ونظمته، ونظم الأمر على المثل، وكل شيء قرنته بآخر، أو ضممت بعضه إلى بعض فقد نظمته. والنظم المنظوم وصف بالمصدر. والنظم ما نظمته من لؤلؤ وخرز وغيرهما. والنظام ما نظمت في الشيء من خيط وغيره. والنظام الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ، وكل خيط ينظم به لؤلؤ أو غيره فهو نظام. وجمعه نظم وهو في الأصل مصدر. والانتظام الاتساق.." (Ibn Manzur,2003).

وفي المصباح المنير للفيومي، يقول: "نظمت الخرز نظماً من باب ضرب: جعلته في سلك، وهو النظام بالكسر، ونظمت الأمر فانتظم: أي أقمته فاستقام، وعلى نظام واحد: أي نهج غير مختلف، ونظمت الشعر نظماً" (Alfayyumi,2008).

وفي القاموس المحيط للفيروز أبادي نجد: "النظم التأليف، وضم شيء إلى شيء آخر، ونظم اللؤلؤ ينظمه نظماً ونظاماً. ونظّمه – بتشديد الظاء – ألفه وجمعه في سلك فانتظم. والنظام: كل خيط ينظم به لؤلؤ ونحوه" (AlfairuAbadi,2003)

وفي المعجم الوسيط فالنظم: "نظم الأشياء نظماً: ألّفها وضمّ بعضها إلى بعض، واللؤلؤ ونحوه جعله في سلك ونحوه، ويقال: نظم الخواص الخواص: ضفره. وانتظم الشيء: تألف واتسق، يقال: نظمه فانتظم، ويقال: انتظم أمره استقام، والأشياء جمعها، وضم بعضها إلى بعض. وتناظمت الأشياء تضامت وتلاصقت. والنظام الخيط ينظم فيه اللؤلؤ وغيره. والترتيب والاتساق. ويقال: نظام الأمر قوامه وعماده. والطريقة، يقال: مازال على نظام واحد" (Majma`k Allughah,2004).

وفي أساس البلاغة للزمخشري، يقول: "ن–ظ–م نظمت الدر ونظمته، ودر منظوم، ومنظم، وقد انتظم، وتنظم، وتناظم، وله نظم منه، ونظام، ونظم. ومن المجاز نظم الكلام. وهذا نظم حسن، وانتظم كلامه وأمره، وليس لأمره نظام إذا لم تنتظم طريقته. وتقول: هذه أمور عظام لو كان لها نظام. ورمى صيداً فانتظمه بسهم وطعنه فانتظم ساقيه أو جنبيه" (Azzamakhshari,1982).

نلاحظ من خلال التعريفات التي أسردناها آنفاً، أن جميع المعاجم استخدمت اللؤلؤ في تصوير ضم الشيء إلى شيء آخر. فالعامل المشترك في توضيح معنى النظم عند هذه المعاجم هو ضم الشيء إلى الشيء، وتنسيقه. لكنهم استخدموا اللؤلؤ في تصوير هذا الضم. هذا يعني أن الصورة التي كانت موجودة في أذهان أصحاب المعاجم لتوضيح معنى النظم هي صورة لشيء جذّاب، نفيس، له جمال، وقيمة ثمينة، يجمِّل من يلبسه. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن ضمّ حبات اللؤلؤ بعضها إلى بعض يتطلَّب شيئاً من الدقَّة في الترتيب والتنظيم، والتمعُّن في عملية هذا الترتيب، والتذوُّق الفنّي في صناعة سلسلة اللؤلؤ هذه، حتى تخرج الصنعة في صورة جميلة جذابة، تُقْبِلُ عليها الأعين.

أما **المعنى الاصطلاحي للنظم** فهو ذلك الذي أشار إليه الإمام عبد القاهر الجرجاني بقوله: "أن تضع كلامك الوضع الذي تقتضيه علوم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها". "فنظم الحروف – في كلمة – هو تواليها في النطق فقط، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا النّاظم لها بمقْتفٍ في ذلك رسماً من العقل اقتضى أنْ يتحرّى في نظمه لها ما تحرّاه. فلو أنّ واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدّي إلى فساد. وأمّا نظم الكلم – الذي نعنيه هنا – فليس الأمر فيه كذلك ، لأنّك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتِّبُها على حسب ترتيب المعاني في النفس. فهو نظم يُعْتَبَرُ فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضمّ الشيء إلى الشيء كيفما جاء واتفق" (Aljurjani,1960). هذا يعني أنّ النظم الذي نحن بصدده هو ما تعلَّق بالمعنى، أمّا الألفاظ فنظْم حروفها جاءت وفقاً لوضع اللغة، وهي معروفة لدى الجميع، فقد جاءت لِتُعَبِّر عن ذاك المعنى المراد. وبعبارة أخرى، النظم ما اقتفى الناظم فيه آثار المعنى في نفسه، فرتّب ألفاظه حسب ترتيب المعنى فيه. يطلق اصطلاحاً على نظم الكلام. ونعني به ترتيب وتوالي الكلمة بعد الكلمة وليس ترتيب الحروف في الكلمة الواحدة.

ونظم الكلام يستوعب كل تلك المعاني التي أشار إليها أصحاب المعاجم في تعريفاتهم اللغوية عن النظم ، فهو – إذن – عملية تأليف الكلام على نمط خاص بجمع الكلام التي هي الألفاظ وضم بعضها إلى بعض، وقرن أول لها بآخر على نسق وترتيب خاص وفق قواعد اللغة والنحو وغيرها. وعملية التأليف هذه لابد أنْ تُعَبِّر عن معنى يدور في الفكر، ويريد بها الناظم أنْ يوصلها للمُتَلقّي.

كما يجب الإشارة هنا إلى نقطة مهمة، وهي أنّه لا يُعنى بالنظم أنْ يكون المقصود إلى اللفظ نفسه، وترتيبه، ورصِّه، دون أنْ يكون للمعنى دور فيه. فبمجَرّدِ ضم مجموعة من الألفاظ دون أنْ توحي بمعنى لا يدخُلُ فيما نحن بصدده الآن، بل لابُدَّ أنْ يأتيَ حسب ما يقتضيه العقل، يقول صاحب التعريفات أنّ النظم "في الاصطلاح تأليف الكلمات والجمل مترتبة المعاني متناسبة الدلالات، على حسب ما يقتضيه العقل، وقيل : الألفاظ المترتبة المسوَّقة المعْتَبرة دلالاتها على ما يقتضيه العقل" (AljurjaniAli,1983). أضفْ إلى هذا، أنَّه يجب أنْ تُرَتَّبَ المعاني أولاً في نفس الناظِم ، ثمّ النطق بالألفاظ على حذْوِها . وهذه هي الفائدة التي أشار إليها عبد القاهر في معرفة الفرق " أنّه ليس الغرض بنظم الكلم أنْ توالتْ ألفاظها في النُّطق، بل أنْ تناسقت دلالتها، وتلاقت معانيها عل الوجه الذي اقتضاه العقل" (Aljurjani,1960). وهذا هو الذي يباين نظوم الكلام بين بعضها البعض، ويظهر التفاوت بين كلام هذا وكلام ذاك.

ونستخلص من هذا، أنّ النظم في مفهومه الاصطلاحي هو مجموعة من الألفاظ المعروفة في وضع اللغة، جاءت لِتُعَبِّرَ عن فكرة في الذهن، فقام الناظم بترتيبها، وتعليقها ببعضها، داخل إطار علم النحو، متوخياً معانيه، متَتَبِّعاً رسومه، تناسقت به دلالاتها، وارتبطت معانيها لتقوم بترجمة المعنى الموجود في الذهن، والذي يُراد إيصاله للمتلقي .

3. مفهوم نظم الكلمات

إنّ بلاغة القول وفصاحته والبراعة فيه، لا تتأتّى إلاّ بتحقيق الألفاظ المختارة بمعانيها الصحيحة، وأنْ ترتبط كل لفظة بأختها، وتتعالق ببعضها البعض في سلسلة من الجمل، لا تستغني الواحدة منها عما قبلها ولا عما بعدها، وأنْ يكون كلُّ موقعٍ لكلِّ لفظةٍ من هذه الألفاظ حقاً عليها الذي يقتضيه حالها، مع المحافظة على قواعد النحو وقوانينه عليه، وهي بهذه تحوز على ميل القلوب إليها، وعشق الآذان لسماعها. إذن، فإنّ "كل ما يُعبِّر به عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلّموا، وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد.. – يُقْصَدُ به وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة – ثمّ تبرُّجها في صورة هي أبهى وأزْيَن، وآنق وأعْجب وأحَقّ بأنْ تستولي على هوى النفس، وتنال الحظ الأوْفر من ميل القلوب، وأوْلى بأنْ تطلق لسان الحامد، وتطيل رغم الحاسد، ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أنْ يُؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، ويختار له اللفظ الذي هو أخص به وأكشف عنه، وأتم له، وأخرى بأنْ يكسبه نبلاً ويظهر فيه المزية" (Aljurjani,1992).

فاللفظة في حالة انفرادها، أو في ذاتها، ليس لها ميزة أو فضل أوّليّ يميّزها عن أختها. فـ "اعلم أنّ ها هنا أصلاً ترى الناس فيه في صورة مَنْ يعرِف مِنْ جانب ويُنْكِر مِنْ آخر، وهو أنّ الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لَمْ تُوضَعْ لِتُعْرَف معانيها في نفسها، ولكن لأنْ يُضَمَّ بعضها إلى بعض فيُعْرَفُ فيما بينها فائد..."

(Aljurjani,1992). فلا يمكن إصدار حكمٍ على فصاحة قولٍ ما أو عدم فصاحته إلى اللفظة قبل دخولها في سياق معيَّن. فنظم هذه الألفاظ هو المرجع الأول في تحديد البلاغة والفصاحة والبيان. فالسياق هو الذي يُحْدِثُ تناسق الدلالة، ويبرز فيه المعنى المراد إيصاله والذي اقتضاه العقل. أمّا اللفظة المفردة فهي لفظة لا وزن لها في الفصاحة والبيان. وعلى هذا المنطلق، تبدأ حركة تبلْوُر فكرة النظم تتطوّر بأنه يجب على الألفاظ أنْ تتعالق ببعضها البعض، وتطلبها معانيها الإتيان بها في سياق مخصوص لتؤدي الفكرة والمعنى المترتَّب في النفس. "معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض. والكلم ثلاثٌ: اسم، وفعل، وحرف. وللتعليق فيما بينها طرقٌ معلومة، وهو لا يَعْدو ثلاثة أقسام: تعلُّق اسم باسم، وتعلُّق اسم بفعل ، وتعلُّق حرف بهما" (Aljurjani,1992).

إن النظم البليغ لا يتمُّ إلاّ بالتعالق النحوي الذي ينسج العلاقات بين أجزاء التراكيب، منظوراً إليها من زاوية المعنى المتبوع لا اللفظ التابع "فلا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلَّق بعضها ببعض، ويُبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك... وإذا نظرنا في ذلك علمنا أن لا محصول لها غير أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلاً لفعل أو مفعولاً، أو تعمد إلى اسمين، فتجعل أحدهما خبراً عن الآخر، أو تتبع الاسم اسماً على أن يكون الثاني صفة للأول، أو تأكيدا له أو بدلاً منه. وبان بذلك أن الأمر على ما قلناه، من أن اللفظ تبعٌ للمعنى في النظم، وأن الكلم تترتب في النطق بسبب ترتب معانيها في النفس، وأنها لو خلت من معانيها حتى تتجرد أصواتاً وأصداء حروف، لما وقع في ضمير، ولا هجس في خاطر، أن يجب فيها ترتيب ولا نظم" . (Aljurjani,1992)

إذن الفكرة مبنية من أوّلها على أنّ الكلام عبارة عن سلسلة من الألفاظ، وهذه الألفاظ المتسلسلة لابدّ أنْ تتعلَّق ببعضها. "فإذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشك أن لا نظم في الكلام ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك..." (Aljurjani,1992) . وهذا يعني أنّ تعلُّقَ اللفظة بأختها لابدَّ أن يغرض إلى معنى مراد من هذا التعلُّق. وهذا يقودنا إلى أنّ اللفظ تبعٌ للمعنى في النظم، وأنّ الكلم تترتّب في النطق بسبب ترتُّب معانيها في النفس، وأنها لو خلَتْ من معانيها حتى تتجرّد أصواتاً وأصداء حروفٍ، لما وقع في ضمير ولا هَجَسَ في خاطر، أنْ يجب فيها ترتيبٌ ونظم، وأنْ يجعل لها أمكنة ومنازل، وأنْ يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك" (Aljurjani,1992).

من هنا يتَّضِحُ لنا " أنَّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مُجَرَّدة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأنَّ الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ .." (Aljurjani,1992). فاللفظة في حدِّ ذاتها ليست فصيحة وهي مجرَّدة عارية. وأنَّ صفاتها ليستْ في نفسها، وإنَّما هي صفات عارضة لها في التأليف والصياغة، لَمْ تَكُنْ لها إعتبار أو دلالات أو دقائق بلاغية قبل دخولها في سياق الكلام. وعليه فإنَّ مَرْجَعَ الفصاحة والبلاغة وجمال التعبير يعود إلى صورة هذه

الألفاظ وتعالق بعضها البعض، ومعْرَضِها الذي تتجلّى فيه. وبعبارة أخرى ترجع إلى نظمها وما يُطْوى فيه من خصائص (Aljurjani,1992).

4. ارتباط النظم بالنحو

إنّ ممّا لا شكَّ فيه، أنّ النظم الذي نعنيه هنا هو أنْ تجعل الكلمة بسبب من جارتها، تتَّبعُ في ذلك ما يجيزه علم النحو، ويشهد له بالصحة. فقد حكم العلماء بفساد النظم وسوء التأليف على نصوص لَمْ يلتزم قائلها ما يقتضيه علم النحو ولَمْ يتوخَّ معانيه. من ذلك قول الفرزدق:

وما مثله في الناس إلاّ مملكا أبوه أمه حي أبوه يقاربه

وهو يعني بهذا أنّه ليس في الناس إنسان حي يقارب الممدوح في الفضائل سوى ملك، أبو أم ذلك الملك أبو الممدوح. أي لا يشبهه إلاّ ابن أخته.

كما عابوا على قول المتنبي:

الطِّيب أنت إذا أصابك طِيبه والماء أنت إذا اغتسلت الغاسل

وقوله أيضاً:

وفاؤكما كالرّبع أشجاه طاسمه بأنْ تسعدوا والدمع أشفاه شاجمه

فالقول الأوّل يعني به المتنبي أنّك أنت المطِيّب للطِّيب إذا تَطيَّبتَ به، وأنت الغاسل للماء إذا اغتسلت به. بينما القول الثاني فمعناه أنّ وفاؤكما أيُّها الصاحبان بأنْ تعيناني يشفيني،كالدمع يشفي صاحبه إذا انسكب. ويحزنني ألاّ تفعلاه، كالربع يحزن إذا كان دارساً لا أثر فيه لساكن. فالتعقيد ظاهر في جميع تلك الأبيات التي ذكرناها (Barakah,1989).

والفساد والخلل الحاصل في نظم تلك الأبيات، ونظائرها، كان في "أنّ الشاعر تعاطى ما تعاطاه من هذا الشأن على غير الصواب، وصنع في تقديم أو تأخير أو حذف أو إضمار أو غير ذلك ما ليس له أنْ يصنعه، وما لا يسوغ ولا يصح على أصول هذا العلم. وإذا ثبت أنّ سبب فساد النظم واختلاله أنْ لا يعمل بقوانين هذا الشأن، ثبت أنّ صحَّته أنْ يعمل عليها. ثمّ إذا ثبت أنّ مُسْتنْبط صحّته وفساده من هذا العلم ثبت أنّ الحكمَ كذلك في مزيَّته والفضيلة التي تعرض فيه" (Aljurjani,1992).

إذن، نجد أنّ هذا الضرب من الضم لابدّ أنْ يتمَّ وفق (معاني النحو) يؤول بالمجموعة إلى الوحدة، ويفضي بفضل هذا التناسج والالتحام التي يوجدها بين عناصر مختلفة إلى شيء واحد لا يمكن تجزئته. وعلاوة على هذا، فإنّ "مثل واضع الكلام مثل من يأخذ قطعاً من الذهب أو الفضة، فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة، وذلك أنك إذا قلت: (ضرب زيد عمراً يوم الجمعة ضرباً شديداً تأديباً له) فإنك تحصل من مجموع هذه الكلم على مفهوم هو معنى واحد لا عدة معان كما يتوهمه الناس، وذلك لأنك لَمَّ تأتِ بهذه الكلم كلها لتفيده أنفس معانيها، وإنما جئت بها لتفيده وجوه التعلق التي بين الفعل الذي هو(ضرب) وبين ما عمل فيه، والأحكام التي هي محصول التعلق.... وإذا كان كذلك بان منه وثبت أن المفهوم من مجموع الكلم معنى واحد لاعدة معانٍ، وهو إثباتك زيداً فاعلاً ضرباً لعمرو في وقت كذا، وعلى صفة كذا، ولغرض كذا، ولهذا المعنى تقول: إنه كلام واحد" (Aljurjani,1992).

وقضية ربط النظم بعلم النحو قضية مهمة للغاية، فـ "ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو تعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيئ منها. وذلك أنّا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أنْ ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينْظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنْطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق، وزيد هو منطلق، وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: إنْ تخرج أخرج، وإنْ خرجت خرجت، وإنْ تخرج فأنا خارج، وأنا خارج إنْ خرجت، وأنا إنْ خرجت خارج، وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: جاءني زيد مسرعاً، وجاءني يسرع، وجاءني وهو مسرع، أو وهو يسرع، وجاءني وقد أسرع، فيعرف لكل من ذلك موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له، وينظر في الحروف التي تشترك في معنى، ثم ينْفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيضع كلاً من ذلك في خاص معناه، نحو أنْ يجيء بما في نفي الحال، وبلا إذا أراد نفي الاستقبال، وبان فيما يترجَّحُ بين أنْ يكون وألاّ يكون، وبإذا فيما علم أنّه كائن، وينظر في الجُمَلِ التي تُسْرَد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقّه الوصل موضع الواو من موضع الفاء، وموضع الفاء من موضع ثمّ، وموضع أو من موضع أمْ، وموضع لكن من موضع بل، ويتصرَّفُ في التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير في كلامه كله، وفي الحذف والتكرار والاضمار والاظهار، فيضع كلاًّ من ذلك مكانه، يستعْمله على الصحَّة وعلى ما ينبغي" (Aljurjani,1992).

هذه الإشارات وضعت لنا قاعدة أساسية في فكرة النظم. هذه القاعدة تُعْنى بعملية إيصال المعنى من المتكلِّم إلى المتلقّي، وهذه العمليّة تُعْتَبَرُ في حدِّ ذاتها حلقة وصل بينهما، حتى لا يفقد الأخير مقاصد الأول، وتتشعَّب به الاحتمالات. فيجب على المتكلِّم أن يحرص على قوانين النحو وقواعده، "فلا يوجد شيء يرجع

صوابه وخطؤه إلى النظم إلاّ وهو معنى من معاني النحو أصيب به موضعه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه" (A`mer,1975).

فالنظم هو مجموعة من الألفاظ متعلقة بعضها ببعض. تسير على ما رسمه علم النحو لها متوخياً معانيه. والمزية في معاني النحو ليست في ذاتها ونفسها، "وإنما تعرض لها بسبب تعبيرها عن المعاني والأغراض خير تعبير، وتصويرها لها خير تصوير، ثم بسبب موقع هذه المعاني بعضها ببعض في الكلام، ثم فيما بينها من الإلتئام والإنسجام. فالغرض من النحو هنا ليس علامات الإعراب المترتبة على موقع الكلمة من جمليها، وإنما المراد به هو النحو البلاغي الذي يطابق به مقتضى الحال" (Allam,n.d). من هذا المنطلق استوجب علينا أن نعلم "أن مما هو الأصل في أن يدق النظر ويغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت أن تتحد أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بالأول ، وأن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعاً واحدا، وأن يكون حالك فيها حال الباني يصنع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك. نعم وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين، وليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوصف حد يحصره، وقانون يحيط به، فإنه يجيء على وجوه شتى وأنحاء مختلفة" (Aljurjani,1992). وكل هذا وجب عليهم أن يرتبطوا بعضهم ببعض في إطار النحو البلاغي أو البلاغة النحوية.

5. سرّ البلاغة والفصاحة والبيان في قول الناظم

يرى عبد القاهر في دراسته حول تبيان إعجاز القرآن، أنّ المعجزة واقعة في كلام المتكلِّم، وهو حديث الخالق سبحانه وتعالى، ولغة الخلق. فالقرآن نزل بلسان عربي مبين، وعجز العرب عن مجاراته، وكانت – ومازالت – معجزته في نظم، وإن كان بلغة العرب وَوِفْقَ قواعدهم ومواصفاته، فهو إعجاز يعود إلى المتكلم لا إلى اللغة ذاتها التي تتيح له قدراً كبيراً من الاختيار والمفاضلة بين التراكيب والصيغ المعبرة عن الغرض. فالمفردات هي نفس المفردات المتعارف عليها بمعانيها، بيْد أنّ فصاحة القرآن وبيانه تكْمُنُ في ترتيب هذه المفردات، وتعالقها ببعضها البعض في دقة لما يقتضيها معانيه.

"إن الفصاحة فيما نحن فيه، عبارة عن مزية هي بالمتكلم دون واضع اللغة، وإذا كان كذلك فينبغي لنا أن ننظر إلى المتكلم هل يستطيع أن يزيد من عند نفسه في اللفظ شيئاً ليس هو له في اللغة... وإذا نظرنا وجدناه لا يستطيع أن يصنع باللفظ شيئاً أصلاً، ولا أن يحدث فيه وصفاً، كيف؟ وهو إن فعل ذلك أفسد على نفسه، وأبطل أن يكون متكلماً، لأنه لا يكون متكلماً حتى يستعمل أوضاع لغة على ما وضعت عليه" (Aljurjani,1992).

فعبد القاهر الجرجاني من خلال تصريحاته الآنفة قد صَيَّرَ اللغة مادة خاماً بين يدي النّاظم. فهو المتحكِّم في تشكيل هذه المادة، وترتيب ألفاظها، وِفْقَ رؤيته والمعاني المراد إيصالها، على ألاّ يضيع أصول اللغة ورسومها بينه وبين مُتَلقِّيه، فلا ينتهك سننها. وعلى هذا فإنَّ "البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة، وكل ما شاكل ذلك مما يُعبِّر به عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلّموا، يُقْصَدُ به وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة، ثمّ تبرُّجها في صورة هي أبهى وأزْيَن، وآنق وأعْجب وأحَقّ بأنْ تستولي على هوى النفس، وتنال الحظ الأوْفر من ميل القلوب، وأوْلى بأنْ تطلق لسان الحامد، وتطيل رغم الحاسد، ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أنْ يُؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، ويختار له اللفظ الذي هو أخص به وأكشف عنه، وأتم له، وأخرى بأنْ يكسبه نبلاً، ويظهر فيه المزية" (Aljurjani,1992).

6. تعالق النظم بالدلالات

إن موضع اللفظة المراد منها التعبير عن المعنى المكنون في الذهن لها أهمية في تبيان فصاحة القول وبلاغته. فهذه المواضع لها دلالات يجب على الناظم أن يدركها ويعرف خواصها ومِيّزاتها. "وذلك أنّا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في (الخبر) إلى الوجوه التي تراها في قولك: (زيد منطلق) و (زيد ينطلق) و (ينطلق زيد).. وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: (إن تخرج أخرج)، و (إن خرجتَ خرجتُ) .. وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك (جاءني زيد مسرعاً) و (جاءني يسرع).. فيعرف لكل من ذلك موضعه ، ويجيء به حيث ينبغي له .. وينظر في (الحروف) التي تشترك في معنى، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى ... وينظر في الجمل التي تسرد، فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل... ويتصرف في التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، وفي الكلام كله، وفي الحذف والتكرار، والإضمار والإظهار، فيصيب بكل من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له" (Aljurjani,1992) ، أي أن نظم الكلم مختلف لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني، فـ"ليس الغرض إذن بنظم الكلم إلاّ تناسق دلالاتها، وتلاقي معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل" (Aljurjani,1992).

وعندما تحدَّثنا عن قضية اللفظ، عرفنا أنَّ اللفظة المجردة العارية لا تعني شيئاً، ولا تتفاضل فيما بين أخواتها، وإنَّما "تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ. فلا نظم في الكلام ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض. وهذا التعالق بين الألفاظ وعملية بنائها بعضها على بعض يُقْصَدُ بها النظر ومعرفة أنْ نَجْعَلَ الواحدة منها بسببٍ من صاحبتها، ما معناها وما محصولها. "فإذا نظرْنا في ذلك عَلِمْنا أنَّ لا محصول لها غير أنْ تعمد إلى اسمٍ فتجعله فاعلاً لفعلٍ أو مفعولاً أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبراً عن الآخر أو تتبع الاسم اسماً على أنْ يكون الثاني صفة للأوَّل أو تأكيداً له أو بدلاً منه أو تجيء باسم بعد تمام كلامك على أنْ يكون الثاني صفة أو حالاً أو تمييزاً أنْ تتوخّى في كلام هو لإثبات معنى أنْ يصير نَفْياً أو استفهاماً أو تمنّياً فتدخل عليه الحروف

الموضوعة لذلك، أو تريد في فعلين أنْ تجعل أحدهما شرطاً في الآخر فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى أو بعد اسم من الأسماء التي ضمنْتَ معنى ذلك الحرف" (Aljurjani,1992).

وعلى هذا الصعيد، يكون تعالق الألفاظ بعضها ببعض هو الذي يشرح ويعبّر عن المعنى المراد. كما نفهم أيضاً من هذا أنّ المعنى يتعدَّدُ عند المتلقي بتعدُّدِ الأسلوب، ونفهم أنّه لا سبيل إلى المطابقة إلاّ بالتكرار الصريح. فالمعنى هنا هو محصِّلة التفاعل الدلالي بين معاني الألفاظ ومعاني النحو التي أنشأها الناظم، أما الغرض فهو الفكرة العامة قبل أن تصاغ في أسلوب معيَّن مخصوص، وهذه الفكرة هي التي وصفها الجاحظ بأنها "مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والقروي والبدوي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وصحة الطبع، وكثرة الماء، وجودة السبك" (Aljahiz,1979).

فنستخلص من هذا، أن هناك حتميَّة وجود اتحاد أوضاع الألفاظ بمعانيها، فلا تأتِ باللفظة حتى يطلبها المعنى. لذا كان على الناظم أن يُدَقِّق في تأليفه لهذه الألفاظ، ويُتْبِعُها بالمعنى الذي يطلبها. فلا يصحُّ الحكم على اللفظة المفردة بأنها بليغة أو غير بليغة، ولا الأمر كذلك مع المعنى الذي يدور في الفكر مجرداً دون أن يتبعه لفظه الذي يلائمه وينسجم معه. فالأولى تبع للثانية، والثانية أتتْ من أجل الأولى، وهلمّ جرا. "فاللفظ تبعٌ للمعنى في النظم، وأنَّ الكلم تترتَّب في النطق بسبب ترتيب معانيها في النفس، وأنَّها لو خَلَتْ من معانيها حتى تتجرَّد أصواتاً وأصداء حروف لما وقع في ضمير ولا هجس في خاطر أنْ يجبَ فيها ترتيب ونظم، وأنْ يجعل لها أمْكِنة ومنازل، وأنْ يجب النطق بهذه قبل النطق بتلك" (Aljurjani,1992).

ولنرى كيف أجاد عبد القاهر في توضيح فكرة النظم عندما قام بتحليل قول الله تعالى: **(وقيل يا أرض ابلعي ماءك، ويا سماء اقلعي، وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي)**، يبيّن فيه أنّ الفضل إنما يعود إلى ارتباط الكلمات بعضها ببعض، وإلى ما بين معاني بعضها البعض.

"فتجلّى لك فيها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع. إنّك لَمْ تجد ما وجدت من المزية الظاهرة، والفضيلة القاهرة، إلاّ لأمرٍ يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وإن لَمْ يعرض لها الحسن والشرف إلاّ من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة، وهكذا إلى أنْ تستقرّ بها إلى آخره وأنّ الفضل نتائج ما بينها، وحصل من مجموعها .. — فانظر وتأمل — هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت، لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟ قل (ابلعي) واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها وكذلك فاعتبر سائر ما يليها. وكيف بالشَّك في ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أمرت. ثم في أن كان النداء بـ **(يا)** دون **(أي)** نحو **(يا أيتها الأرض..)**، ثم إضافة **(الماء)** إلى الكاف دون أن يقال **(ابلعي الماء)**، ثم أن اتبع نداء الأرض وأمرها بما هو شأنها، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصُّها، ثم أن قيل **(وغيض الماء)** فجاء الفعل على صيغة (فُعِلَ) الدالة على أنه لَمْ يغض إلا بأمر آمر،

وقدرة قادر، ثم كيد ذلك وتقريره بقوله (**وقضي الأمر**) ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو (**استوت على الجودي**) ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة (**قيل**) في الخاتمة بـ (**قيل**) في الفاتحة. أفترى لشيئ من هذه الخصائص التي تملأك بالإعجاز روعة، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى في النطق ؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الإتساق العجيب؟" (Aljurjani,1992).

إنَّ الذي يريده الإمام عبد القاهر من إشاراته الآنفة هو أنَّ النظم مجموعة ألفاظ تتعالق مع بعضها البعض في منهج لغوي يُدْعى بعلم النحو ليعبِّر عن فكرة في الذهن. فاللفظة المجردة لا تعني شيئاً مالم تدخل في سياق ما. فمثلاً كلمة (ابلعي)، هل يمكنها أنْ تؤدّي وظيفة وهي مجرَّدة لوحدها؟ بالطبع لا.. لكنها عندما دخلت في السياق، ولحقت بأخواتها، بانَ معناها وأدَّت وظيفتها، وكذلك سائر الألفاظ التي تبعتها.

وقبل أنْ نُوَضِّح بصورة مُفَصَّلة أكثر فيما أراد الإمام عبد القاهر تبيانه لنا عن سمو نظم هذه الآية، يجدر بنا أنْ نُدرك قصة الواقعة التي تتحدَّث عنها هذه الآية. فهذه الآية الكريمة جاءت لتحكي لنا موقفاً عظيماً قد نزل على قوم نوح عليه السلام بعد أنْ حلَّ عليهم غضبٌ من الله سبحانه وتعالى. فقد أرسل عليهم الطوفان ليقضي على الباغين الظالمين من الكفار والمجرمين، وينجي نوح عليه السلام ومن معه في تلك السفينة الظافرة. لكن هذه العملية كانت تعني هدفاً معيناً، لذا كان من الطبيعي أنْ يتمَّ هذا كلُّه بأقصى سرعة. وقد قام عبد القاهر **بتحليل هذه الآية** تحليلاً جيداً اعتمد فيه على استخدام اللغة، أضف إلى هذا ذوقه الرفيع في تقصّي المعاني الثانية للفظة، ومعْرِفة مواضعها في معاني النحو. وعليها أثْبَتَ أنَّ جمال هذه الآية تعود لخصائص مُعَيَّنة في نظْمها وترتيب ألفاظها. وهي:

1. **أنَّ الأرض نوديَتْ ثمَّ أُمِرَتْ**. فالعظمة في هذه الآية التي أشار إليها عبد القاهر هي أنَّ هناك نداء. وهذا النداء لَمْ يكُنْ عبثاً، بل كان لمرادٍ مقصود وهدفٍ معني. فقد كان النداء من العلي القدير ليحسم أمراً قد قَضى فيه حكمه. لأجْلِ هذا عَقُبَ هذا النداء أمرٌ يختصُّ بالمنادى. ففي بداية الآية نودِيَتْ الأرض ثم أُمِرَتْ، ثمَّ تلاها نداء للسماء وأمْرٌ يختص بها.

2. **أنَّ النداء كان بـ(يا) وليس بـ(أيتها)**. فالنداء بيا أقرب إلى طبيعة الموقف الذي يقتضي السرعة والحسم في التنفيذ، وليس الموقف موقف تعظيم للأرض حتى نقول (ياأيتها الأرض). فمثلاً عندما تقول: (يارجل قُمْ بِعَملِك)، فأنت تريد من قولك هذا أنْ يؤدّي عمله بغضِّ النَّظر عَمَّنْ يكون هذا الرجل، بينما لو قلت: (ياأيُّها الرجل قمْ بِعملِك)، فأنت بقولك هذا تريد من رجلٍ قد عظَّمْتَ شأنه بأنْ يقوم بعمل ما. وموقف الآية لا يحتاج لهذا الشيء، لذا كان النداء بـ(يا) أكثر مواءمة للمعنى.

3. **إضافة الكاف إلى الماء في قوله تعالى: (إبلعي ماءك)**. هذه الإضافة جاءت لتفيد أمرَيْن مُهمَّيْن، أحدهما: إشارة للأرض أنْ تبلع الماء الذي أخرجته من بطنها، فهذا الماء هو ماؤها. والثانية: معنى مُضمر يرتبط بزوال الطوفان. ففي بلْعِ الأرض هذا الكَمُّ الهائل من الماء إشارة إلى أنَّ الوضع لابدَّ أنْ يعود كما كان، فقد قُضِيَ الأمر، وتحقَّقَ المراد.

4. **أنَّ الأرض نودِيَت والسماء نودِيَتْ أيضاً**. وكل نداء كان على حده، ذلك لأنَّ لكلٍ من هاتين المخلوقتين وظيفة تختصّ بها دون الأخرى. فعنْدما نودِيَتْ الأرض أُمِرَتْ بما يخصُّها، كذلك مع السماء، فعندما نودِيَتْ أمِرَتْ بما يخصُّها هي أيضاً. وهذا كلُّه من أجل تحقيق هدفٍ مُقَدَّر محسوم وهو أنْ يعود كل شيء إلى ما كان، ولنْ يعود كل شيء إلى ما كان إلاّ بعد أنْ تبْلع الأرض ما عليها من ماء، وتكُفَّ السماء عن أمطارها.

5. **استخدام المبني للمجهول في قوله تعالى: (وَغِيضَ الماء وَقُضِيَ الأَمْر)**. إنَّ هذه العبارة تُوحي أنَّ هناك قُدْرَةُ قادرٍ هي التي حَسَمَتْ الموقف بأكْمَلِه. هنا يأتي السؤال يَطْرَحُ نفسه، أين ذهبت كل هذه المياه، وبهذه السرعة؟ كيف عادت الأمور كما كانت بهذه البساطة؟ من وراء كل هذا؟ ... إنَّها القدرة الإلاهية التي قدَّرَتْ وشاءت، وأمرتْ فَحسَمَتْ.

6. **التأكيد والتقرير في قوله تعالى: (وقُضِيَ الأمْر)**. فعنْدما نقرأ قوله تعالى (وَقُضِيَ الأمْر) ونتمعَّنُ في هذه الألفاظ المرَتَّبة ترتيباً نحوياً دقيقاً، نُحِسُّ أنَّ هناك قضيَّة قد تَمَّ حسْمُها حسماً نهائياً، وأنَّ هناك هدفاً معْنِياً قد تحقَّق مراده.

7. **إضمار السفينة في قوله تعالى: (واستَوَتْ على الجودي)**. فقد ذكرنا آنفاً أنَّ الله سبحانه وتعالى عندما أرسل الطوفان على قوم نوح عليه السلام أراد منه التطهير، وذلك بالقضاء على الباغين الظالمين من الكفار والمجرمين، وينجّي نوح عليه السلام ومن معه متى تستقرُّ سفينته الظافرة، بمعنى أنَّ استواء السفينة على الجبل هو المقصود من كلِّ ما كان. بيْد أنَّ الآية الكريمة لَمْ تذْكرْ السفينة، بلْ أضْمَرَتْها. وهذا إنْ دلَّ على شيء، فإنَّما يدلُّ على عظمةِ شأنِ هذه السفينة. ففي حذفها تعظيم لشأنها، أمَّا ذكرها فإقلالٌ من شأنها.

8. **مقابلة (قيل) في الفاتحة بـ(قيل) في الخاتمة**. هذه المقابلة البلاغية توحي لنا أنَّ في الكلام بداية ونهاية، وأنَّ القصَّة كلّها محصورة بين قيل الأولى وقيل الثانية، وأنَّ كل شيء قد تمَّ بقدرة قادر، وتحت رعاية من أراد شيئاً أنْ يقول له كُنْ فيكون.

وبعد، فإنَّ هذا التحليل الدقيق الذي أجاد فيه الإمام عبد القاهر، قد أثبت لنا أنَّ النظم هو فكرةُ كيفية ترتيب الألفاظ وتعالق بعضها البعض بحيث "أنْ تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو تعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيئ منها..." (Aljurjani,1992) ، وأنَّ هذه المعاني النحوية هي القادرة على كشف أسرار الفصاحة والبيان في الكلام.

7. مفهوم اللغة تحت منظور النظم

يقول عبد القاهر عن اللفظة المفردة: "اعلم أنّ ههنا أصلاً ترى الناس فيه في صورة مَنْ يعرِف مِنْ جانب ويُنْكِر مِنْ آخر، وهو أنّ الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لَمْ تُوضَعْ لِتُعْرَف معانيها في نفسها، ولكن لأنْ يُضَمَّ بعضها إلى بعض فيُعْرَفُ فيما بينها فائد، وهذا علم شريف، وأصلٌ عظيم. والدليل على ذلك أنّا إنْ زعمنا أنّ الألفاظ التي هي أوضاع اللغة إنّما وُضِعَتْ ليُعْرَفُ بها معانيها في أنفسها لأدّى ذلك إلى مالا يَشُكُّ عاقل في استحالته، وهو أنْ يكونوا قد وضعوا للأجناس الأسماء التي وضعوها لها لتُعْرَفُ بها حتى كأنَّهم لو لَمْ يقولوا قالوا: فعل ويفعل، لما كنّا نعرِفُ الخبر في نفسه ومن أصله. ولو لَمْ يقولوا قد قالوا: افعل، لما كنّا نعرِفُ الأمر من أصله ولا نجده في نفوسنا. وحتى لو لَمْ يكونوا قد وضعوا الحروف لكنّا نجهل معانيها فلا نعقِل نفياً ولا نَهْياً ولا استفهاماً ولا استثناء. وكيف والمواضعة لا تكون ولا نتصوَّر إلاّ على معلوم، فمُحال أنْ يُوضع اسم أو غير اسم لغير معلوم. ولأنّ المواضعة كالإشارة، فكما أنّك إذا قُلْتَ: خُذْ ذاك، لَمْ تكُنْ هذه الإشارة لتُعَرِّف السَّامع المشار إليه في نفسه، ولكنْ لِيَعْلَمَ أنَّه المقصود من بين سائر الأشياء التي تراها وتُبْصِرُها. كذلك حكم اللفظ مع ما وُضِعَ له. ومَنْ هذا الذي يَشُكُّ أنّا لَمْ نعرف الرجل والفرس والضرْب والقَتْل إلاّ مِنْ أساميها؟ لو كان لذلك مساغ في العقل لكان ينْبغي إذْ قيل يزيد: أنْ تعْرِف المسَمّى بهذا الاسم من غير أنْ تكون قد شاهدته أو ذكر لك بصفة" (Aljurjani,1992). يتضِّح من هذا الكلام حقائق مهمة عن حقيقة اللفظة، وهي:

أولاً: أننا نعرف الأشياء قبل أنْ نضع لها ألفاظاً تدل عليها. فمثلاً (الرجل، والفرس، والدار.. وغيرها) معروفة لدينا من قبل أنْ نضع لها هذه الأسماء. فالمقصود من نُطْقِنا لهذه الأسماء ليس من أجل أنْ نُعَرِّف السامع بشيء لَمْ يكن يعرِفه من قبل، ولكن استعمالنا لهذه الألفاظ هو من أجل الإشارة إلى أشياء هي معروفة لدينا من قبل.

ثانياً: أنّ اللفظة المفردة المجرَّدة هي وسيلة للإشارة والدلالة على شيء ما، لا أكثر ولا أقل. فعندما نقول (رجل) مثلاً، فنحن لا نريد من هذا سوى الإشارة إلى جنس من الناس.

ثالثاً: من الحقيقة الأولى والثانية التي ذكرناها آنفاً يتَّضِح أنّ اللفظة المفردة لا تكْتَسِب معنى مُحدَّد، أو تُفيد غرض ما إلاّ إذا ارتبطت وتعالقت بألفاظ أخرى سابقة لها أو لاحقة بها، وكل منها تؤدّي وظيفتها في سياق ما. "ومن ثمَّ كانت الكلمة المفردة مجرَّد إشارة إلى الصورة الباردة للشيء، أمّا الكلمة المستَخْدَمة في سياق فهي شحنة من العواطف الإنسانية والصورة الذهنية والمشاعر الحيَّة إلى جانب مافيها من معنى عقلي مُجَرَّد" (AlAshmawi,1978).

والذي يُهمُّنا من هذا كلّه، هو النقطة الأخيرة، وهي تعالق وارتباط اللفظة بأخواتها في سياق ما. فهذه النقطة هي النظم بحد ذاته، والتي كان بسببها أنْ ظهرت نظرية النظم. وعلى إثر هذه النظرية، اتضحت أساسيات للتعرف على مفهوم اللغة وهي أن الألفاظ ترتبط ببعضها في سلسلة لفظية بعلم النحو، وأنَّ علم النحو له صلة رحم وثيقة بعلم المعاني والبلاغة منه بالقواعد المنطقية الجامدة من إعراب وحركات وسكنات.

إنّ تَفَهُّم حقيقة علم النحو وسمو مكانته قد ردَّ للغة اعتبارها وجعلها في المكان اللائق بها. "فالنحو عنده ليس هذا العلم الذي يبحث في ضبط أواخر الكلمات، ولا هو جملة القواعد الجافة، ولا هو هذا الشيء الذي لا مكان له في البلاغة ولا في الفن. إنّما النحو عنده العلم الذي يكشف لنا عن المعاني، وما المعاني هنا إلاّ الألوان النفيسة المتباينة التي نُدْرِكُها من علاقات الكلام بعضه ببعض" (AlAshmawi,1978).

فعلم النحو لا يحمل مهمة مقصورة على صحة التراكيب وسلامتها من الخطأ، بل هو مفتاح لمعرفة معاني كتاب الله، وبالتالي فهو – دون شك – مفتاحٌ لمعرفة اللغة بأكملها "فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إنْ كان صواباً، وخطؤه إنْ كان خطأ إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم، إلاّ وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، ولستعمل في غير ما ينبغي له. فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظمه أو فساده، أو وصف بمزيَّة وفضل فيه، إلاّ وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد، وتلك المزيَّة وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدَّته يدخل في أصلٍ من أُصوله، ويتَّصِل ببابٍ من أبوابه" (Aljurjani,1992).

كما أنّ من هذا المُنْطَلق، نجد أن علم النحو لا يقف عند أمر الصحة والخطأ فحسب، بل يجاوز ذلك إلى تعليل الجودة والرداءة في الكلام، فيردُّها إلى معاني النحو الذي منه تظهر وجود مزايا وخاصيات دقيقة وفروق في الاستخدام والاستعمال من شأنها أنْ ترفع من شخص وتخفض من آخر. فإننا "لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أنْ ينظر في وجوه كل باب وفروقه. فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد مُنْطَلِق، ومُنْطَلِقٌ زيد، وينطلق زيد، ومُنْطَلِقٌ زيد، وزيدٌ المنْطَلِق، والمنْطَلِق زيد، وزيدٌ هو المنْطَلِق، وزيدٌ هو مُنْطَلِق. وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: إنْ تخرجْ أخرج، وإنْ خرجْتَ خرجت، وإنْ تخرجْ فأنا خارج، وأنا خارجٌ إنْ خرجْت، وأنا إنْ حرجْت خارج. وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: جاءني زيدٌ مسرعاً، وجاءني يُسرع، وجاءني وهو مسرع أو وهو يسرع، وجاءني قد أسرع، وجاءني وقد أسرع. فيعرف كل ذلك

موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له. وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلاً من ذلك في خاص معناه، نحو أنْ يجيء (بما) في نفي الحال، و(بلا) إذا أراد نفي الاستقبال، و(بإنّ) فيما يترجَّح بين أن يكون وألاّ يكون، و(بإذا) فيما علم أنّه كائن. وينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقّه الوصل موضع (الواو) من موضع (الفاء)، وموضع (الفاء) من موضع (ثمّ)، وموضع (أو) من موضع (أم)، وموضع (لكن) من موضع (بل). ويتصرَّف في التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير في الكلام كلّه، وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار فيضع كلاً من ذلك مكانه، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له" (Aljurjani,1992).

إن معرفة الفروق والوجوه في هذه الأبواب المختلفة لا تعني معرفة مواقع الكلم من حيث إعراب كل لفظة، أو من حيث أنها قواعد يجب حفظها والإلمام بها، وإنّما هي معرفة معاني العبارات ودلالاتها من حيث أنّها أتَتْ هنا أو هناك، وفي إدراك الفروق الدقيقة في كونها اسْتُخْدِمَتْ كذا أو كذاك. ففي الخبر وجوه كثيرة، فلكل مبتدأ وخبر حكمه الذي ينفرد به، ولكل جملة وضعها الخاص بها، لكن العبرة تتأتّى بالدقائق الصغيرة التي أخفاها الناظم بمجيئه لهذه أولاً أو بتلك أولاً، أو بِوَصْلِه هذه بتلك أو فصله لهما. فالمعنى لا يستوي بين (زيدٌ مُنْطَلِق) و (زيدٌ ينطلِق) ولا حتى بين (ينطلق زيد) و (مُنْطَلِقٌ زيد) وهلمَّ جراً. فإنّ كل تغيير، ولو كان طفيفاً، في كل ما ذكرناه له معناً خاصاً، وإضافة جديدة قد أراد إليه الناظم (AlAshmawi,1978). وهذه هي فكرة إدراك الدلالات في نصٍ أدبي.

وقضية معرفة علم النحو ليست قضية معرفة قواعد النحو والصرف، وإنّما هي قضية معرفة معاني العبارات ووضعها في مواضعها. "لو كان النَّظم يكون في معاني النحو لكان البدوي الذي لَمْ يسمع بالنحو قط، ولَمْ يعرف المبتدأ والخبر وشيئاً مما يذكرونه لا يتأتّى له نظم كلام، وإنّا نراه يأتي في كلامه بنظم لا يحسنه المتقدِّم في علم النحو. قيل: هذه شبه مِنْ جنس ما عرض للذين عابوا المتكلِّمين فقالوا: إنّا نعلم أنّ الصحابة رضي الله عنهم والعلماء في الصَّدْرِ الأوَّل لَمْ يكونوا يعرفون الجوهر والعرض، وصفة النَّفس، وصفة المعنى وسائر العبارات التي وضعتموها، فإنْ كان لا تتم الدلالة على حدوث العلم، والعلم بوحدانية الله إلاّ بمعرفة هذه الأشياء التي ابتدأْتموها فينْبغي لكم أنْ تدعوا أنَّكم قد علمتم في ذلك مالَمْ يعلموه، وأنّ منزلتكم في العلم أعلى من منازلهم. وجوابنا هو مثل جواب المتكلَّمين وهو أنّ الاعتبار بمعرفة مدلول العبارات لا بمعرفة العبارات. فإذا عرف البدوي الفرق بين أنْ يقول: (جاءني زيدٌ راكباً) وبين قوله: (جاءني زيدٌ الراكب) لَمْ يضرّه ألاّ يعرف أنّه إذا قال: (راكباً) كانت عبارة النحويين فيه أنْ يقولوا في (راكب) إنّه حال ، وإذا قال: (الراكب) إنّه صفة جارية على زيد..." (Aljurjani,1992).

فالقاعدة النحوية تلعب دوراً مهماً جداً في كشف دلالات المعنى من خلال صياغة مجموعة من الألفاظ، فهي ليست قاعدة جافة جامدة، إنّما هي دليل لمعرفة خفايا الدلالات، وأنّ هذه الدلالات هي حقيقة اللغة.

فاستخدام اللغة تتفاوت من شخص لآخر لما تمتلكها من لطائف العبارات، ودقائق الدلالات، وأسرار تكمن في مستخدمها.

8. البلاغة بين التعبير العاري والتعبير المزخرف

يقصد بالتعبير العاري ذلك التعبير الذي يخلو منه الخيال، والصور الفنية، وألوان البديع، ووجوه البيان من مجاز واتشبيه واستعارة. فهو تعبير يهدف إلى إيصال المعنى الموجود في الذهن، دون أن يتطرَّق الناظم أو المتكلم إلى تزيين كلامه وزخرفته بالصور الفنية أو الصور الشعرية. وعليه، فإن التعبير المزخرف هو ذلك التعبير الذي يقصد ناظمه إلى إيجاد صور بديعية وبيانية وفنية لإخراج كلامه ورواداً وزهزراً في مزهريَّة. بيْد أنَّ هذين التعبيرين قد أوقع الكثير من الناس في غلط تحديد معنى البلاغة ومفهومه. يقول عبد القاهر: "واعلم أنَّ هذا، أعني الفرق بين أنْ تكون المزِيَّة في اللفظ وبين أنْ تكون في النَّظم، باب يكثُر فيه الغلط. فلا تزال ترى مُسْتَحْسَناً قد أخطأ بالاستحْسان موضعه، فينحَلُّ اللفظ ما ليس له، ولا تزال ترى الشبهة قد دخلتْ عليك في الكلام قد حسن من لفظه ونظمه، فظنَنْتَ أنَّ حُسنه ذلك كلَّه للفظ منه دون النظم. مثال ذلك أنْ تَنْظُرَ إلى قول ابن المعتز:

وإنّي على إشفاقِ عيْني من العدى لتجْمَحَ مني نظرةٌ ثمّ أطْرق

فترى أنَّ هذه الطلاوة وهذا الظرف إنَّما هو لأنْ جعل النظر يجْمحُ وليس هو لذلك، بل لأنْ قال في أوَّلِ البيت (وإنّي) حتى دخل اللام في قوله (لتجمح) ثمّ قوله (مني) ثمّ لأنْ قال (نظرة) ولَمْ يقُلْ: النظر مثلاً، ثمّ لمكان (ثمّ) في قوله: ثمَّ أطْرق، وللطيفة أخرى نَصَرَتْ هذه اللطائف وهي اعتراضه بين اسم إنَّ وخبرها، بقوله: على إشفاق عيني من العدى. وإنْ أرَدْتَ أعجب من ذلك فيما ذكرت لك فانظر إلى قوله:

سَالَتْ عليه شِعابُ الحي حين دعا أنصاره بوجوهٍ كالدنانير

فإنَّك ترى الاستعارة على لُطْفها وغرابتها إنَّما تمَّ لها الحسن وانتهى إلى حيث انتهى بما توخّى في وضعِ الكلام من التقديم والتأخير، وتجدها قد مَلَحَتْ ولَطَفَتْ بمعاونة ذلك ومؤازرته لها. وإنْ شَكَكْتَ فاعمد إلى الجارين والظرف فأزِلْ كلاً منهما عن مكانه الذي وضعه الشاعر فيه، فقلْ: سالت شِعابُ الحي بوجوهٍ كالدنانير عليه حين دعا أنصاره. ثمّ انظر كيف يكون الحال، وكيف يذهب الحسن والحلاوة، وكيف تعْدَمُ أريحيَّتُك التي كانت، وكيف تذْهَبُ النشْوة التي كنت تجدها؟" (Aljurjani,1992).

إن حقيقة الأمر من هذا كله هو أنَّه لا يمكن الفصل بين التعبير العاري والتعبير المزخرف. فلا ننظر في الاستعارة على أنَّها مُجَرَّد استعارة فحسب، بل ننظر إلى كيفيَّة خروج هذه الاستعارة بحقيقتها حين استطاع

الناظم توزيع ألفاظه بطريقة لَمْ تكُنْ الزخرفة والنقش هدفه الأساسي، بل كان هدفه التعبير عن مشاعره الخاصة في شكل أدبي متماسك متلاحم تولَّد منه إثارة المتلقّي حتى تفاعل معه ومع إيحائته. فالاستعارة موجودة في البيتين، بَيْدَ أنَّها لَمْ تكنْ الغاية في حدِّ ذاتها.

ونحن هنا نسرد تحليل الدكتور محمد زكي العشماوي لبيت ابن المعتز. فقد أحسَّ بعاطفة الشاعر ووصلت إليه الصورة الحقيقية لمشاعر الشاعر، وذلك من خلال تذوُّقِه الاستعارة التي أتى بها الشاعر في بيته ذاك، يقول العشماوي: "الموقف – هنا – موقف شاعر مُحِب يرى حبيبته أمامه ويوَدُّ لو استطاع أنْ يمْنَعَ عيْنه بالنظر إليها، وهو شديد اللهفة إلى إطفاء شوقه إليها، حريص على أنْ تلْتقي عينُه بعيْنِها، ولكنه لسوء الحظ مُحاطٌ بالأعداء من كل جانب، وجميعهم ينْظر إليه ويرقُبُه، وهو أمام كل هذا بين أمرين: إمّا أنْ يخضع لعاطفته المشبوبة فيبْعث بنظرته إلى حبيبته ضارباً عرض الحائط بهذه الأنظار المصوّبة نحوه من أعدائه، فيَفْتَضِحُ أمره ويكشف عن حبِّه، وإمّا أنْ يرْضَخَ لخوفه وإشفاقه من أعدائه ورغبته في إخفاء هذه الحقيقة عنهم، فيَحْرِمَ نفسَه من النظر إلى حبيبته حرصاً منه على نفسه وعليها. ولكنّه لَمْ يَسْتَطِعْ، رغم هذه المحاولات التي بذلها أنْ يكتم حُبَّه، ويَكْبِتَ ما في صدره من لَهْفَةٍ وشوق إلى حبيبته، وأنْ يُقاوم الرغبة في النظر إليها، وإذا بالشَّوْق يغلبه، وإذا هذه العاطفة الحبيسة في صدره تنطلق منه رغم هذه القيود التي تقيَّدها فتجْمع منه نظرة ثمّ يطرق، وفي إطراقته هذه الأخيرة إحساس عميق بكل معاني الإشفاق والخجل التي تصْطَرِع في نفسه" (AlAshmawi,1978).

هذا التحليل الدقيق الذي توصَّل إليه العشماوي، وكأنها مشاعره هو نفسه، قد ترتَّبَت في ذهنه إثر تفهُّمِه لمواضع الألفاظ التي أتى بها الشاعر، فظهرت الاستعارة في أروع ثيابها. "فتأكيد الجموح وحتميَّتة لَمْ يتحقَّق إلاّ من استخدام الشاعر للتوكيد في قوله (وإنّي) وفي اللام التي سبقت الفعل (تجمح). وما كان أيضاً لهذا الجموح أنْ يظهر على أنَّه أمرٌ محتوم لا مفرَّ منه لولا أنْ سبقتْه عبارة (على إشفاق عيني من العدى)، لأنَّه على الرغم من إشفاق الشاعر من أعدائه، ومحاولة كبْحِه لجماح نفسه قد فَرَّتْ منه هذه النظرة. ومن هنا كان لتقديم عبارة (على إشفاق عيني من العدى) تأثيرها على الجموح نفسه. ولا تَنْسَ أنَّ جملة (ثمَّ أطْرَقَ) الأخيرة قد أضافت إضافة رائعة ومهمة وقَوَّتْ من إحساس الإشفاق والحذر الذي مَهَّدَتْ له كلمة (على إشفاق عيني من العدى)، فهو على رغم انطلاق النظرة منه مايزال يحسُّ بالخجل مِمَّنْ حوله" (AlAshmawi,1978).

ونجد في البيت الثاني (وسالت عليه شعاب الحي...)، أنَّ قيمة الاستعارة في جمالها وروعتها لَمْ تكنْ في (سالت شعاب الحي) ، بل كانت في مواضع هذه الألفاظ التي استطاعت أنْ تظفر بالسيل لشعاب الحي. فلو رجعنا لقول عبد القاهر (.. فقل: سالت شعاب الحي بوجوهٍ كالدنانير عليه حين دعا أنصاره ..) فإنَّ استعارة السيل لشعاب الحي موجودة أيضاً، لكنها لَمْ تصل إلى ما وصلت إليها من روعة وجمال. فتقديم الجار والمجرور (عليه) على الظرف (حين دعا)، ثم تأخير (بوجوهٍ كالدنانير) عنه، "استطاع أنْ يواجهنا أولاً بهذا

السيل المتدفِّق من الناس الذين ما كادوا يسمعون نداءه ودعوته حتى سارعوا إليه وتدفَّقوا حوله كالسيْل. وهكذا نحس لأوَّلِ وهْلة بمدى ما لهذا الممدوح من مكانة عند قومه، فإنَّ صيحة واحدة منه قد فجَّرَتْ عليه شعاب الحي فأقْبَلَتْ جموعهم تترى من كل صوبٍ وحدْب" (AlAshmawi,1978).

9. الخاتمة

فقد توصلنا بعد هذا المشوار الأدبي إلى معرفة ماهية نظم الكلام. فالذي يحكم على الكلام بأنه فصيح أو بليغ أو ما دون ذلك هو النظم. فمهما تأتي بالكلمة، سواء كانت غريبة أو شائعة، فإنها لا تستطيع أن تحكم على كلامك بالفصاحة أو بعدمها مالم تعلقها بكلمات أخرى في سياق يقتضيه علم النحو بصحته. وهذا التعليق لابدَّ أن يؤدي إلى معنى. فإن عبَّرت كل كلمة من كلمات السياق عن الصورة التي تريد أن توصلها للسامع بشكل دقيق، وجدت في كلامك مستوى من مستويات الفصاحة. وكل ما كان ترتيبك وتنسيقك للكلمات التي اخترتها في سياق كلامك في محلِّه، بحيث تؤدي كل كلمة معناها الذي جاء من أجلها، كل ما ارتقى مستوى فصاحتك. إذ أن الكلمة بمجرد أنها كلمة فهي لا تدل على الفصاحة أو البلاغة. ولا حتى المعنى الموجود في الذهن لن يدخل في نطاق الفصاحة والبلاغة ما لَمْ تأتِ مجموعة من الكلمات بمعانيها اللغوية والثانوية يعلق بعضها ببعض لتعبِّر عن ذلك المعنى الموجود في الذهن.

لقد أفاد الإمام عبد القاهر الجرجاني ممن سبقوه في توضيح وتحليل ما ذكرناه آنفاً. ففكرة النظم فكرته. إنه صاحب هذه النظرية البلاغية. وقد استعرضنا واقتبسنا الكثير مما جاء عنه في كتابه دلائل الإعجاز الذي كان جملة القول فيه عن قضية النظم. كان يربط هذه القضية بكل ألوان علوم البلاغة. ومنه أفدنا أن البلاغة لا تظهر إلاّ من النظم. فالكلمات موجودة، والمعاني مطروحة، لكن الفصاحة والبلاغة لا تتأتى إلا من ذلك الناظم. فهو الذي يُلْقَى عليه الحكم بالفصاحة أو دونها. ذلك لأنك تجد معناً ما في سياق كلام هو نفسه ذلك المعنى الذي وجدته في سياق كلام آخر، لكنك تحكم على أحدهما بالفصاحة أو البلاغة، بينما الآخر تحكم عليه بالعيب والنقص.

إن الصور الشعرية، والزخرفة في التعبير، لا تعني أن نظم الكلام استحق الفصاحة أو البلاغة. بل هناك من الأبيات الشعرية ما عيب عليها لسوء نظمها، والتعقيدات التي ظهرت من الناظم. وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن الزخرفة في التعبير أو دونها لا تقدم للبلاغة تأثير. وأقرب مثال بين أيدينا هو القرآن الكريم. فالقرآن ليس شعراً، ولا هو تعبير مزخرف، لكنه بهر العرب قاطبة ببلاغة نظمه وفصاحة أسلوبه. لهذا نقول بأن النظم هو الحكم الوحيد في منظور البلاغة.

Acknowledgement

This article is a part of research entitle "Pembinaan Model Buku Teks Balaghah Untuk Pelajar Bahasa Arab di IPTA/S Mengikut Konsep PAK21", Funded by Universiti Sains Islam Malaysia, Grant No: P1-16-17119-UNI-USIM-FPBU. Therefore, the researchers appreciate the great support of USIM.

References

Al Quran al Kareem.

A'llam, Abdul Aty Gharib Aly, *al Balaghah Al Arabiyyah bayn an naqidayn al Khalidyan,* Abdul Qaher al Jurjany wa Ibn Sinan al Khafajy, Dar alJail Beirut.

Amir, Fathi Ahmad, 1975, *Firatul Nazom bayna Wujuh E'jaz fi Quran alKqreem,* Kaherah

Al Asad Abadi, Al Qadhi Abu al Hassan Abdul Jabbar, 1960, Al *Mughniy Fi Abwab At Tauhid Wal Adhl*, V 16, E'jaz al Quran, Tahqiq Amin Khouly, Matba'ah Dar al Kutub.

Al Baghdadiy, Abu Mansor Abdul Qader Ibn Tohir, *alFarq Bayn al Farq*, Tahqiq wa Ta'lid Muhammad Muhyiddin Abdul Hameed, Dar al MA'rifah Kaherah.

Barakah, Abdul Ghaniy Muhammad Saeid, 1989, *E'jaz al Quraniy wa Wujuhuhu wa Asraruhu,* 1st edition, Maktabah Wahbah Kaherah.

Al Baqillany, Al Qadhi Abu Bakr, 1987, *Al Inshof*, 1st Edition, Tahqiq Emad al din Ahmaed Haydar, Alim al Kutub, Beirut.

Al Baqillany, Al Qadhi Abu Bakr, 1988, *E'jaz al Quran*, 1st Edition, Lebanon Beirut.

Doyf, Syauqi, 1965, *al Balaghah Tatauwur wa Tarikh*, Dar maarif Egypt

Fairuz Abady, Muhamad ibn Yaakob, 2003, *al Qamus al Muhit*, 2nd edition, Dar Ihya' atTurath Beirut Lebanon.

Fayyoumy, Ahmad ibn Muhamad ibn Aly, 2008, *al Misbahul Munir*, Muassasah al Mukhtar, Kaherah.

Ibnu Mandhur, Muhammad Ibn Mukrarrem, 2003, *Lisanu Arab*, Dar A'lim al Kutub, V 16, Ar Riyadh.

Al Jahiz, Abu Osman Amru, 1948, *Al Bayan wa al Tabyeen*, V1, Tahqiq Abdul Salam Mohamad Haroun, Matba'ah al Jannah, Kaherah.

Al Jahiz, Abu Osman Amru, 1969, *Al Haiwaan*, 2nd Edition, V4, Tahqiq Abdul Salam Mohamad Haroun, Matba'ah al baby alhalabi, Egypt.

Al Jahiz, Abu Osman Amru, 1997, *Al Haiwaan,* 3rd Edition, V1-V3, Tahqiq Yahya as Shamiy, Mansyuraat Dar wa Maktabah al Hilal.

Al Jauhari, Ismael Ibn Hamad, 1979, *Assohah*, v9, Tahqiq Ahmad Abdul Ghafur Ator.

Al Jurjaniy, Abdul Qaher, 1991, *Dalail E'jaz*, Tahqiq Mahmoud Muhamad Syakir, Maktabah al Khanjiy, Cairo.

Al Jurjaniy, Abdul Qaher, 1992, *Dalail E'jaz*, 3rd edition, Ta'liq Mahmoud Muhamad Syakir, Matba'ah al Madaniy, Cairo.

Al Jurjaniy, Abdul Qaher, *Dalail E'jaz*, 6th edition, Tahqiq Mohamad Rasyid Redha.

Al Jurjaniy, Ali Ibn Muhamad Ibn Ali, 1983, *al Takrifaat*, Tahqiq Jamaah Min Ulama' Bi Isyraf an Nasyir, Dar al Kutub Ilmiyyah, Beirut Lebanon.

Ar Rafie'y, Mutapha Sodiq, *E'jaz al Quran wa Balaghah annabawiyyah*, Maktabah Misr Egypt.

Al Ushmawiy, Mohamad Zaki, 1978, *Qadaya al Naqd al Adabiy Bayn Qadeen wa al Hadith*, 3rd edition, al Haiah al Misriyyah al ammah Lilkitab, Misr.

Yuslina Mohamed, Zainal Abidin. H, Kauthar A.K. (2013). Quranic Miracles In The Book Of "Syafiah "Written By Abdul Qaher Jurjaani, Gjat | December 2013 | Vol 3 Issue 2 | 125. Issn: 2232-0474 | E-Issn: 2232-0482. Www.Gjat.My